

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الأولى - العدد الثاني - صيف ١٣٩٠ش / حزيران ٢٠١١م

## اللغة العربية؛ مكانتها وقضاياها اللغوية

حمزة أحمد عثمان\*

### الملخص

إن اللغة مرآة حال الأمة وسجلّ مفاخرها والشاهد على مجدها في المجالات الاجتماعية والأدبية والسياسية والإدارية، تعزّ بعزة أمتها وتذلّ بذلتها. إنها أداة التفاهم والتعاون والتعايش بين الشعوب، وإنّ الدول الراقية تحاول بكلّ ما في وسعها لنشر لغاتها وتقويتها بين الشعوب. نتحدث في هذه المقالة عن مكانة اللغة عند أصحابها، وأهمية اللغة العربية من حيث التناسب بين اللفظ والمعنى واتساعها. وعن النظريات المختلفة حول نشأة اللغة، وهل أنها تواطؤ واصطلاح بين البشر أم توقيف أى وحي وإلهام، ونبحت أيضا عن أقسام اللغة الأصلية، وطبقاتها من حيث التكوين، وهل إنها وضعت كلّها في وقت واحد أم وضعت متتابعة، وكذلك نشير إلى عصمة أو عدم عصمة الأعراب الجاهليين عن الخطأ، وفيه إشارة موجزة إلى المنازعات التي حدثت بين نحوى البصرة والكوفة.

الكلمات الدليلية: اللغة، طبقات اللغة، اللغة العربية، الأعراب الجاهليون، البصريون، الكوفيون.

\*.عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية في گرمسار - أستاذ مساعد.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د.هادى نظرى منظم.

H.Ahmadosman@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٢/٤/١٣٩٠هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٢/٣/١٣٩٠هـ. ش

## المقدمة

استوفت كل أمة نصيبها من الحكمة والخبرة، وكانت على جانب من الكياسة وحسن السياسة تحرص بكل جد على أن يكون للغتها المقام الأرفع بين سائر اللغات، ولا تترك وسيلة إلا يتوسل بها لاستمالة الشعوب إلى ارتياد مَشْرَعها، ولا تبخل بشئ مما عندها في سبيل تعزيزها ونشر لوائها بين الأمم، ولأجل الوصول إلى هذا الهدف تعقد المجامع اللغوية والندوات العلمية، وتفتح المعاهد لتعليم لغتها وتقويتها حتى في غير بلادها، لتَشوُّق الطلاب إليها ونشر أفكار شخصياتها العلمية وآثار أدبائها وشعرائها. ولا شك في أن اللغة أهم وأمتن الصلة بين قلوب بنيتها لصيانة قوميتهم وحفظ جامعيتهم، وأقوى رابطة بين الأمم التي تتفق لغتها وتختلف سياساتها. ولقد بذل الفاتحون طوال العصور جهودهم في سبيل نشر لغاتهم في البلدان التي سيطروا عليها، كما بذلوا الجهد لتعلم لغات شعوب تلك البلدان، كي يسهل لهم التعاون والتفاهم والتعايش معها، وإن صفحات التاريخ مليئة بما يؤيد هذه الحقيقة، وإن الأمم ليست أعنى باقتصادها منها بمنصرة لغاتها. إن الذي يتيح له الفرصة لتفقد العواصم العريقة في الحضارة ويخالط أبنائها يرى أنهم يفتخرون بلغاتهم ويحاولون تحبيبها إلى الأقسام الأخرى، وهم حريصون أشد الحرص على شرفها، ولا يطيعون أن ينال منها نائل، ولا يصبرون على كلمة سوء من الآخرين يسلقون بها لغتهم ويحطون من شأنها. وليس غريبا أن يكون للغات هذه الأهمية ورفعة الشأن، فإن اللغة مرآة أحوال الأمة ومقياس مدنيته، وسجل تأريخها ومفاخرها ومآثرها، ومستودع علومها وفنونها، ومجلة عاداتها ونزعاتها والشاهد على ما كانت عليه من المجد والعزة، والناطقة بما تفرّد به كتابها ونوابغها، وتُحدّث عن شؤونها الاجتماعية، والأدبية، والإدارية، والسياسية. ومن الطبيعي أن اللغة تتبع أمته في العزة، والذلة، والحياة، والموت؛ فإذا كانت الأمة عزيزة قوية رفيعة الراهية، فإن لغتها تعزّ بعزّها، وإذا كان الأمر على العكس فعلى العكس، والدهر ينسج لكليهما كفنا ويدفنهما في جدث واحد، فاللغة تابعة لأهلها تنقرض بانقراض أهلها وتحيا بحياتها، فإذا نظرنا إلى اللغات الميتة كالآشورية، والبابلية، والفينيقية، والحميرية أو التي أودعت في بطون الصحف ولا يتكلّم بها الآن أحد ولم يبق

لها كيان ولا يتحرك بها لسان، كاليونانية القديمة أو اللغات التي تلقن في بعض الجامعات ولا يتداولونها إلا في العلوم العالية، فإن مرجعها في ذلك هو انقراض أهلها، فانقرضت بانقراضه. وليس السبب في ذلك قصور تلك اللغات عن سد حاجات أقوامها فإن من بينها ما هي أدت خدمات عظيمة، وقد أشار إلى ذلك البستاني حيث يقول: ولا يسعنا أن نعزو دثور تلك اللغات إلى كونها عقيمة أو جامدة أو قاصرة عن سد حاجات أهلها، فإن اليونانية القديمة أوسع اللغات مادةً وأطوعها تصريفاً وأغناها تعبيراً وأقيسها تفريراً، وقد أدت ولا تزال تؤدي لجميع اللغات التي تشعبت عنها خدمة جليلة شعر بها كل من له إلمام بإحداها ولا سيما من حيث المستحدثات والمكتشفات العصرية في شتى العلوم والفنون، فهي بلاريب أشبه بمعدن بعيد الغور يستخرجون ما يفتقرون إليه من الأوضاع لكل ما يجد عندهم من المعاني الحديثة، ومع كل هذه المحاسن الروائع فقد لحقت بغيرها من اللغات بعد أن أدارت الدائرة على قومها وغلبوا على أمرهم. وكان فلاسفتها العظام، وخطبائها المفوهون، وشعراؤها المبدعون أعجز من أن يصونوا كيانها بما خلفوه من العقود الشعرية، والخطب العسجدية، والمقالات الجمانية. وكذا كان مصير اللاتينية التي جاءت عقيبتها، فإنها بعد أن رفح أبنائها راية مجدهم ومهابتهم في الخافقين، وبعد أن دوخوا أمما عديدة، وافتتحوا ما شاؤوا من الممالك المنيعه، وصفت لهم الأيام قرونا في قرون، عادت فنزعت من أيديهم ما جادت به عليهم وناصبتهم العدا. (البستاني، ١٩٩٢: ٧) وتجدر الإشارة هنا إلى اللغة العربية، فإن أهلها وإن فقدوا سيادتهم، فهي لا تزال من اللغات الحية والمهمّة في العالم، تغالب اللغات التي تنازعها البقاء، ويرجع ذلك إلى الفضل والمزايا والخصائص الرائعة التي أفردها الله بها سبحانه وتعالى، وبكفيها أن يكون القرآن الكريم مجتاً لها يحفظها ويردّ عنها السهام التي تُصوّب إليها من قبل ذوي الغايات.

اللغة: اللسن، وحدّها أنها أصوات يعبرُ بها كل قوم عن أغراضهم، وقيل: ما جرى على لسان كل قوم، وقيل: الكلام المصطلح عليه بين كل قبيلة، وقيل: اللفظ الموضوع للمعنى، وهي فُعلةٌ من لَعَوْتُ، أي تكلمت، أصلها لُعَوَةٌ ككُرّةٍ وقُلّةٍ وثبّةٍ، كلها لاماتها

وأوت، وقيل أصلها لُغَى أو لُغُو، فحذف لامها وعوض عنها بالتاء. ولا يبعد أن تكون مأخوذة من «لوغوس» باليونانية، ومعناها الكلمة، وجمعها لُغَى مثل برة وبرى، ولُغات ولُغون، والنسبة إليها لُغَوَى بضم اللام. وعُرِّف علمُ اللغة بأنه معرفة أوضاع المفردات. والكتب التي تبحث عن تلك الأوضاع يقال لها المعاجم أو المعجمات جمع معجم، وأهل زماننا يسمونها بالقواميس. (البنسني، ١٩٨٧م، مادة لغا؛ وأقرب الموارد: مادة لغو) وتنقسم اللغة من حيث أصلها إلى أقسام، أهمها: السامية والآرية. فالسامية يرتقى نسبها إلى سام بن نوح (ع)، وأشهرها من اللغات الحية: العربية، والعبرانية، والسريانية، والكلدانية، والحيشية. ومن اللغات التي دارت عليها الدوائر: البابلية، والفينيقية، والحميرية، والنبطية. وأما اللغات الآرية، فهي ترجع إلى أصل واحد هو اللغة الهندية القديمة وتعرف بالسنسكريتية، ومن سلالتها البهلوية، والصقلبية، والجرمانية وما تفرع عنها من اللغات، كالإنجليزية والألمانية، والفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، وغيرها من اللغات العصرية الحية، وبقي طائفة ثالثة من اللغات فصلها علماء الألسن عن الأصلين السابقين، وتعرف عندهم باللغات الطورانية، وأشهرها المجرية والتركية والتتارية والمغولية. (البنسني، ١٩٩٢: ٢٩) ولقد واجه الدارسون عقبات وأوهاما حول معرفة نشأة الأولى للغة البشر، والمصدر والينبوع الحقيقي الذي خرجت منه وامتدت، ثم تفرّعت وتنوّعت، لذا فإن معظمهم بدأ ينصرف عنها ويرى أنها من مسائل ما وراء الطبيعة ولا جدوى من الاستمرار فيها. (أنيس، ١٩٦٨م: ١٣) ومع ما يرى من تخبط النظريات التي توصل إليه العلماء حول هذه المسألة، فقد بقي الباب مفتوحا لمزيد من الاجتهادات والتأويلات. ونحن نشير هنا إلى النظريات المختلفة حول هذه المسألة الجديرة بالاعتبار والاستقصاء:

١. نظرية تقليد الأصوات الطبيعية: ذهب البعض إلى أنّ أصل اللغة ومنشؤها من الأصوات، وفحواها أن المفردات اللغوية الأولى قد انبثقت من الأصوات الطبيعية بحيوانها ورياحها ونباتها ومياؤها ورعدها، كالأصوات المسموعات من دوى الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحیح الحمار، ونعيق الغراب، ونزيب الطي ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، فتأثر الإنسان بذلك واهتدى إلى ألفاظ تمكن من توظيفها لبناء لغة

التخاطب بينه وبين بنى جنسه. (السيوطى، لاتا: ١٥/١؛ وأنيس، ١٩٦٨م: ٢١) ونظر البعض إلى هذه النظرية بسخرية، بحجة أنها ربطت الفكر الإنسانى عند حدود حظائر الحيوانات. ولا وجه للسخرية أو التهكم بها، حيث إن هناك ألفاظا كثيرة قد تولدت من هاتيك الأصوات وتطورت فيما بعد، واتخذت سبيلا إلى دلالات إنسانية راقية، فضلا عن أن الأصوات التى أفاد منها الإنسان ليست كلها من مصدر حيوانى.

٢. نظرية الكلام الانفعالى الغريزى: تقوم هذه النظرية على ما يصدر عن الإنسان من أصوات انفعالية تلقائية جرّاء انقباض الأسارير، أى خطوط باطن الكف والوجه والجبهة، أو انبساطها على أثر الخوف والغضب أو الفرح الشديد. ومصدر هذا الكلام هو الشهقات أو التآوهات والزفرات، وما يشبهها، وهذه الأصوات ومعادلاتها من الكلام متحدة عند جميع الأفراد فى طبيعتها ووظائفها، وإنه يعد نشأة الأولى للغة الإنسانية، ولم يعد يستخدم الإنسان هذه الغريزة الإنفعالية، فانقرضت مع الزمن.

٣. نظرية النشوء بفعل الاحتكاك الإنسانى: ومنشؤها الصورة الجماعية التى يعمل ضمنها الإنسان وهو فى وضع شاقّ ومضنك، فيصدر عنه أصوات غير مفهومة ولكنها معبّرة. ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة نشأت بفعل الاجتماع والاحتكاك، أى بفعل المجتمع الإنسانى، وهكذا بدأ الكلام وتكونت النواة الأولى لنشأة اللغة. (المصدر نفسه: ٣٤)

٤. نظرية التأثير بالأحداث الخارجية القائمة على ردّة الفعل المباشر بين ما يحدث فى الخارج وما ينطق به المرء من أصوات إزاءه، يعنى أن الألفاظ لاتعدو أن تكون صدى لتلك المؤثرات الخارجية إلا أن معرفة كنه الصلة بينهما أمر عسير على أذهاننا. (أنيس، ١٩٦٨م: ٢٥)

٥. نظرية الربط بين عالم الطفل والعالم البدائى. ومنظرها الأول «جسبرسن Jespersen - ت ١٩٤٣م» الذى رأى أن نشأة اللغة عند الطفل تحاكي نشأتها لدى الإنسان البدائى، أى أن اللغة نشأت فى صورة لعب ممتع لا يهدف إلى إيصال معنى إلى السامع، بل كانت أشبه بمناعة الطفل وأصواته المبهمة. (أنيس، ١٩٦٨م: ٢٩)

وإذا دققنا النظر في هذه النظريات يتبين لنا أنها لم تؤد غرضها المنشود، فالنشأة اللغوية الأولى بقيت مسرحاً للاجتهادات والآراء والفرضيات، فلا نظرية تقليد الأصوات الطبيعية تمكنت من تعميم الألفاظ الصوتية على سائر المفردات والأحوال، ولا نظرية الكلام: الانفعال الغريزي وقفت في احتواء الألفاظ والمعاني الغير الانفعالية والغريزية، ولا نظرية الربط بين عالم الطفل والعالم البدائي استطاعت أن تفضى بنا إلى البداية الحقيقية، وذلك لأن البدايات التاريخية الأولى لحياة الإنسان شأن تكهنى وتقريبى، وكذلك تاريخ حياته وفعالياته وتدوينها، لم يعرف إلاّ بعد حقب طويل من الحياة البشرية. (البلاغة العربية: ٣٤، ٣٥)

### نظريتا التوقيف والاصطلاح

تضاربت النظريات وآراء العلماء حول هذه المسألة المهمة الجديرة بالاعتبار والبحث، فمن قائل إن اللغات توقيف، أى وحى، ومن قائل إنها تواطؤ، أى اصطلاح بين البشر، وآخر إن اللغة الأولى توقيفية، وما جاء بعدها من اللغات يجوز أن يكون اصطلاحاً، وأن يكون توقيفاً. ونذكر فى مايلى شيئاً من أقوال كل فريق من أصحاب هذه الآراء والمذاهب الثلاثة، ثم نردفه بما اتفق عليه جمهور الباحثين فى هذا العصر:

المذهب الأول: نظرية التوقيف، ومن مؤيديها ابن الفارس المتوفى سنة (٣٩١هـ/١٠٠٠م) حيث يقول: «إعلم أن لغة العرب توقيف، أى وحى، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١) وقد فسر الطبرى الآية بصورة مفصلة مشيراً إلى اختلاف أهل التأويل فى الأسماء التى علّمها الله آدم ثم عرضها على الملائكة، وذكر روايات عن ابن عباس وعن مجاهد (رضى الله عنهما). يشير بعضها إلى أن المقصود بالأسماء هو الأسماء التى يتعارف بها الناس، وبعضها إلى أنه علّمه اسم كلّ شىء، وذكر أقوال الآخرين، وأنّ بعضهم قالوا: علّمه أسماء الملائكة، وبعضهم قالوا أسماء ذريته، وذكر أنّ أولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دلّ على صحته ظاهر التلاوة قول من قال:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ إنها أسماء ذرّيته وأسماء الملائكة دون أسماء سائر أجناس الخلق، وذلك أن الله -جلّ ثناؤه- قال: ﴿تَمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعنى بذلك أعيان المسمين بالأسماء التي علّمها آدم، ولا تكاد العرب تكنى بالهاء والميم إلا عن أسماء بنى آدم والملائكة، وأما إذا كانت عن أسماء البهائم وسائر الخلق سوى من وصفنا، فإنها تكنى عنها بالهاء والألف أو بالهاء والنون، فقالت: عرضهنّ، أو عرضها، وكذلك تفعل إذا كنت عن أصناف من الخلق كالبهائم والطير وسائر أصناف الأمم، وفيها أسماء بنى آدم والملائك، إنها تكنى عنها بما وصفنا من الهاء والنون، أو الهاء والألف، وربما كنت عنها إذا كان كذلك بالهاء والميم، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ (النور: ٢٤) وهى أصناف مختلفة فيها الآدمى وغيره، وذلك وإن كان جائزا فإنّ الغالب المستفيض فى كلام العرب ما وصفناه من إخراجهم كناية أسماء أجناس الأمم إذا اختلط، بالهاء والألف، أو الهاء والنون. (الطبرى، ١٩٥٤م: ٢١٦/١-٢١٥) فإن قال قائل: أتقولون سيف وحسام وعضب إلى غير ذلك من أوصافه أنه توقيف حتى لا يكون شىء منها مصطلحا عليه؟ قيل له كذلك نقول، والدليل على صحته إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ثم احتجاجهم بأشعارهم. ولو كانت اللغة مواضع واصطلاحا، لم يكن أولئك فى الإجماع بهم بأولى منّا فى الاحتجاج بنا لو اصطلاحنا على لغة اليوم ولا فرق. (السيوطى، لاتا: ٩) والخلاف الناشئ عن هذه النظرية هو فى كيفية وصول اللغة إلينا: أ بالإلهام النبوى، أم بخلق أصوات فى الأشياء وإسماعها لمن عرفها ونقلها، أم بعلم خصّ به الله بعض عباده. (البلاغة العربية: ٣٧)

المذهب الثانى نظرية الوضع الإنسانى أو الاصطلاح، وقد شرحها أبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة (٣٩٢هـ/١٠٠١م) وهو من أتباع هذا المذهب، فقال: أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحى وتوقيف، وذلك بأن جمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا، إذا ذكر عرف به ما مسماه ليمتاز عن غيره، ويغنى بذكره

عن إحضاره إلى مرآة العين، لبلوغه الغرض في إبانة حاله، بل قد يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره ولا إدناؤه، كالفانى وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد، وكيف يكون ذلك لو جاز، وغير هذا مما هو جار في الاستحالة والتعذر مجراه. (السيوطى، لاتا: ١٢، ١٠؛ والبستاني، ١٩٩٢م: ٩-٨) ونقل السيوطى عن محمد الغزالى قوله فى المنحول: «قال قائلون: اللغات كلها اصطلاحية؛ إذ التوقيف يثبت بقول الرسول، ولا يفهم قوله دون ثبوت اللغة، وقال آخرون: هى توقيفية؛ إذ الاصطلاح يعرض بعد دعاء البعض البعض بالاصطلاح، ولا بدّ من عبارة يفهم منها قصد الاصطلاح، وقال آخرون: ما يفهم منه قصد التواضع توقيفى دون ما عداه، ونحن نجوّز كونها اصطلاحية، بأن يحرك الله تعالى رأس واحد، فيفهم آخر أنه قصد الاصطلاح، ويجوز كونها توقيفية، بأن يثبت الرّب تعالى مراسم وخطوطا يفهم الناظر فيها العبارات، ثم يتعلم البعض عن البعض. وكيف لا يجوز فى العقل كلّ واحد منهما ونحن نرى الصبى يتكلّم بكلمة أبويه، ويفهم ذلك من قرائن أحوالهما فى حال صغره، فإذن الكلّ جائز؛ وأما وقوع أحد الجائزين فلا يستدرك بالعقل، ولا دليل فى السمع، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ظاهر فى كونه توقيفا وليس بقاطع، ويحتمل أن كونها مصطلحا عليها من خلق الله تعالى قبل آدم. (السيوطى، لاتا: ٢٣-٢٢) ونقل عن صاحب كتاب شرح الأسماء قوله: قال الجمهور الأعظم من الصحابة والتابعين من المفسرين إنها كلّها توقيف من الله تعالى، وقال أهل التحقيق من أصحابنا لا بد من التوقيف فى أصل اللغة الواحدة، لاستحالة وقوع الاصطلاح على أول اللغات من غير معرفة من المصطلحين بعين ما اصطلحوا عليه، وإذا حصل التوقيف على لغة واحدة، جاز أن يكون ما بعدها من اللغات اصطلاحا وأن يكون توقيفا، ولا يقطع بأحدهما إلا بدلالة. واختلف المؤرخون حول بداية النطق العربى أهو بإسماعيل بن خليل عليهما السلام، أم بالقبائل العربية التى سبقته؟ فمن زعم أنّ اللغات كلّها اصطلاح، كذا قوله فى لغة العرب، ومن قال بالتوقيف على اللغة الأولى، وأجاز الاصطلاح فى ما سواها من اللغات، اختلفوا فى لغة العرب، فمنهم من قال هى أول اللغات، وكل لغات سواها حدثت بعدها إما توقيفا أو اصطلاحا، واستدلوا بأن القرآن



كلام الله وهو عربى، وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات وجوداً، ومنهم من قال لغة العرب نوعان: أحدهما عربية حميرية، وهى التى تكلموا بها من عهد هود ومن قبله وبقى بعضها إلى وقتنا هذا. والثانية العربية المحضة التى نزل بها القرآن، وأول من أنطق لسانه بها إسماعيل(ع)، فعلى هذا القول يكون توقيف إسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين: إما أن يكون اصطلاحاً بينه وبين جرهم النازلين عليه بمكة، وإما أن يكون توقيفاً من الله تعالى، وهو الصواب. (المصدر نفسه: ٢٨-٢٧) ويرى محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم (ت ٤٣٨هـ/١٠٤٦م) أن النطق باللغة العربية بدأ بالقبائل العربية، حيث قال: «فأما الذى يقارب الحق، وتكاد النفس تقبله، فذكر الثقة أن الكلام العربى بلغة حمير، وطسم، وجديس، وإرم، وحويل، وهؤلاء العرب العاربة، وإن إسماعيل لما حصل فى الحرم ونشأ وكبر، تزوج فى جرهم آل معاوية بن مضاى الجرهمى، فهم أحوال ولده، فتعلم كلامهم، ولم يزل ولد إسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ويضعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودة وظهورها، فلما اتسع الكلام ظهر الشعر الجيد الفصيح فى العدنانية، وكثر هذا بعد معد بن عدنان (ابن النديم، ١٩٧٨م: ٧) ويرى محمد بن سلام الجُمحى (ابن سلام، ١٩١٣م: ٤) مستندا إلى رواية يونس بن حبيب أحد شيوخ النحو البصريين (ت ١٨٢، أو ١٨٣هـ/٧٩٩م) أن أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه، إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما، فقال: قال يونس بن الحبيب: أول من تكلم بالعربية إسماعيل بن إبراهيم وأخبرنى مسمع بن عبد الملك سمع محمد بن على هو ابن حُسين يقول: قال أبو عبد الله: أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه إسماعيل بن إبراهيم، وأضاف: أخبرنى يونس عن أبى عمرو قال: العرب كلها من ولد إسماعيل إلا حمير وبقايا جرهم. وكذلك يروى أن إسماعيل جاورهم وأصهر إليهم، ولكن العربية التى عنى محمد بن على هو اللسان الذى نزل به القرآن. وقال السيوطى فى المزهرة (السيوطى، لاتا: ٣٤): ذكر الشيرازى فى كتاب الألقاب بالإسناد إلى محمد بن على بن الحسين، عن آبائه، عن النبى (ص) أن أول من فتق لسانه بالعربية المتينة إسماعيل عليه السلام، وهو ابن أربع عشرة سنة. ونقل أيضا عن ابن جنى

قوله: **إِنَّ أبا علي قال لى يوما: هي (اللغة) من عند الله، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾** وهذا لا يتناول موضع الخلاف، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: **أفدَرَ آدَمَ على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة، فإذا كان ذلك** محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به، وقد كان أبو علي أيضا قال به فى بعض كلامه، وهذا أيضا رأى أبى الحسن، على أنه لم يمنع قول من قال إنها تواضع منه، وعلى أنه قد **فُسِّرَ هذا بأن قيل: إنه تعالى علّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية، والفارسية، والسريانية، والعبرانية، والرومية، وغير ذلك، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إن أولاده تفرّقوا فى الدنيا وعلّق كل واحد منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه، وضمحلّ عنه ما سواها لبعدهم عهدهم بها، وإذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاد به والانطواء على القول به.** (المصدر نفسه: ١١) وذكر البستاني أن المحققين فى هذا العصر جلّهم يرتأون أن الكلام الذى نطق به الإنسان لم يكن عن مواطاة، بل بقوة الغريزة الناطقة التى ركب الله فيه مما أعانه على استنباط ما يفتقر إليه من الألفاظ للتعبير عن حاجته، فكانت لغته فى أول عهده لا يتعدى حدود مطعمه ومشربه وما يقع عليه بصره من المحسوسات على اختلاف أنواعها، ثم أخذت تنمو بنمو معارفه وتتسع باتساع مداركه. (البستاني، ١٩٩٢م: ٩) ويرى السيوطى فى المزهرة (٢٢-٢١): أن العقل يجوّز التوفيق والتواطؤ، فتجوز التوقيف لاحاجة إلى تكلف دليل فيه، ومعناه أن يثبت الله تعالى فى صدور علوما بديهيةً بصيغ مخصوصة بمعانى، فتتبيّن العقلاء الصيغ ومعانيها، ومعنى التوقيف فيها أن يلقوا وضع الصيغ على حكم الإرادة والاختيار؛ وأما الدليل على تجويز وقوعها اصطلاحا فهو أنه لا يبعد أن يحرك الله تعالى نفوس العقلاء لذلك، ويعلم بعضهم مراد بعض، ثم ينشؤون على اختيارهم صيغا، وتقترن بما يريدون أحوال لهم، وإشارات إلى مستميات، وهذا غير مستنكر، وبهذا المسلك ينطق الطفل على طوال ترديد المسمع عليه ما يريد تلقيه وإفهامه، والتعويل فى التوقيف وفرض الاصطلاح على علوم تثبت فى النفوس، فإذا لم يمنع ثبوتها لم يبق لمنع التوقيف والاصطلاح بعدها معنى، ولا أحد يمنع جواز ثبوت العلوم الضرورية على النحو المبين.

## طبقات اللغة من حيث التكوين

تقسم اللغة من حيث تكوينها، إلى ثلاث طبقات: ١. أحادية ٢. مزجية ٣. متصرفة. فالأحادية تتألف ألفاظها من مقطع واحد لا يتغير تبعاً للمعاني، ومن هذا النوع اللغة الصينية، وأما المزجية فهي التي تتركب الألفاظ فيها من كلمتين، تدلّ أولاهما على أصل المعنى، والثانية على المعنى المضاف إليه، كالفعل والزمان والمكان، ويندرج في هذا النوع كل من اللغات اليابانية والتركية، وهذه الطبقة أرقى من الأولى وأدنى من الثالثة، وأما المتصرفة فهي التي يتحول فيها الأصل الواحد إلى صيغ شتى كلّ منها يدل على معنى لا يدل عليه الآخر، ومن هذا النوع العربية والعبرانية والسريانية، غير أن العربية قد امتازت من بين اللغات بكونها لغة اشتقاقية وإعرابية معاً، فبالاشتقاق تحول المادة الواحدة إلى صور متعددة تبعاً للمعاني الجزئية، وهو من خصائص علم الصرف، فتقول من جَمَعَ - مثلاً - يجمع، وأجمع، وجامع، ومجموع، وجمّاع، ومجمع... إلخ. وبالإعراب تُعرّف كلّ كلمة من الجملة أفاعل، أم مفعول، أم مبتدأ، أم خبر؟ وغير ذلك مما تراه مبسوطاً في كتب النحو. أما اللغات الحديثة، فأكثرها من اللغات التحليلية، وهي التي يكون فيها للمعنى ولكلّ من توابعه لفظة خاصة بخلاف العربية، وهي من فصيلة اللغات الإجمالية التي يتحد فيها ما يدل على أصل المعنى بما يدل على تابعه من زمان ومكان وفاعل ومفعول... إلخ. (البستاني، ١٩٩٢م: ١٠)

## تناسب اللفظ والمعنى في اللغة العربية

أشار البستاني إلى التناسب المعجب الموجود بين اللفظ والمعنى في اللغة العربية قائلاً: إذا قيض لك أن تتبحر في هذه اللغة وتقف على مكوناتها وتطلع على سرّ الواضع فيها والطريقة التي تمسّى عليها الواضع في صياغة أصولها وكيف أحسن التفريع على تلك الأصول مراعيًا التناسب بين كلّ أصل وفرعه، لم تمتلك من نفسك إلاّ الإعجاب بذهن العرب الشفاف وهم تحت سمائهم الصافية الأديم، وكيف يرونك من الكلمات الجامدة حياة، ومن التفتن في تركيب مبانيها، ومن جعل الحروف الأضعف فيها والألين،

والأخفى، والأسهل، والأهمس لما هو أدنى وأقل، وأخف عملاً أو صوتاً، والحروف الأقوى، والأشد، والأظهر، والأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً، ما يجعل الإنسان في حيرة، ولولم يكن الاختلال في بعض متون اللغة والاضطراب في أوضاعها، كانت الصلة بين المعنى الحقيقي والمجازي أكثر سطوعاً من البدر في جوف الظلام، وما كنا نرى البون الشاسع في بعض الكلمات التي كادت تعدم الرابطة بين المعاني المختلفة للكلمة الواحدة، وإن هذا أقوى دليل على أن يد التصحيف، والتحريف، والإفساد وصلت إلى هذه اللغة بعد أن تفرقت القبائل العربية في الأطراف وتظاهرت عليها عوامل العجمة. (البيستاني، ١٩٩٢م: ١١-١٢) وجليد بالذکر أن القرآن الكريم هو الذي حفظ هذه اللغة وكيانها، وإلا كادت أن لاتبقى لها كيان، ولربما كانت تلحق ببقية اللغات السامية التي لانرى أحدا يهتم بها وانمحت في صفحات الدهر. ولا بأس بأن نورد هنا بعضاً من الألفاظ والأمثلة التي تنطق بحكمة واضعها ودقته، ليكون دليلاً على ما ذكرناه، ومن ذلك المدّ والمطّ، فإن فعل المطّ أقوى، لأنه مدّ وزيادة جذب، فتناسب الطاء التي هي أعلى من الدال، ومن ذلك الجفّ بالجيم: وعاء الطلعة - وهي واحدة الطلع، والطلع نور النخل ما دام في الكافور، أي في وعائه إذا جفّ، ومن ذلك الخفّ بالخاء: الملبوس وخف البعير والنعام، ولا شك أن الثلاثة أقوى وأجلد من وعاء الطلعة. فخصت بالحاء التي هي أعلى من الجيم، وإنّ مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث باب عظيم واسع ونهج مستقيم عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها، من ذلك قولهم: خَضِم وقَضِم، فالخَضِم لأكل الرطب، كالبطيخ والقثاء وما كان من نحوها من المأكول الرطب، والقَضِم لأكل اليابس، نحو قَضِمَتِ الدابة شَعِيرها. وفي الخبر: قد يدرك الخضم بالقضم. ومن ذلك النضح للماء ونحوه، والنضح أقوى منه. قال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ (الرحمن: ٢٠) فجعلوا الحاء لرققتها للماء الخفيف، والخاء لغلظتها لما هو أقوى منه، ومن ذلك قولهم: القدّ طولاً والقطّ عرضاً، لأن الطاء أخفض للصوت وأسرع قطعاً له من الدال، فجعلوا الطاء لقطع العرض، لقربه وسرعته، والدال لما طال من الأثر

وهو قطعهُ طولاً. (السيوطي، لاتا: ٥٤ و٥٣ و٥٠) وقالوا: أسرف الرجل ماله: إذا بذّره وأنفقه في غير حاجة، وهذه الكلمة مشتقة من السرف. والسرفقة هي دويبة سوداء الرأس سائرها أحمر تقع على بعض الشجرة فتتسج، فتأكل ورقها وتفسدها وتهلك ما بقي منها. (لسان العرب، ج٦: مادة سرف) وقريب من هذا المعنى قولهم: بذّر ماله إذا أفسده وأنفقه إسرافاً، وهو مجاز عن قولهم: بذّر الحبّ: إذا نثره في الأرض، وبذّر الشيء: إذا فرّقه، فكأنّ المبدّر لما له يبدّد وينثره في الأرض حتى يضيع أو يلتقطه عابر السبيل. وقالوا: ملّ الرّجل وأملّ صاحبه، إذا أوقعه في الملل، وتملّل، إذا تقلّب من مرض أو نحوه. وجميع هذه الأفعال مشتقة من الملة وهي الرماد الحارّ، فكأنّ الملول يتقلّب على الملة فيشعر بالمل. وواضح من ذلك قولهم: تملّم الرّجل، إذا تقلّب في مضجعه من الألم، وهو متفرّج من قولهم: ملّم الرّجل اللّحم، إذا قلبه على النار. (لسان العرب، ج٣: مادّة ملل؛ والبستاني، ١٩٩٢م: ١٢) وقالوا: حاوتُهُ، إذا راوغُهُ، وهو مشتق من الحوت، فكأنه فعل معه فعل الحوت في الماء. وقالوا: النّهي بمعنى العقل، لأنه ينهى صاحبه عن اقتراف المعاصي. سمى العقل عقلاً، لأنه يعقله، أي يمنعه عن اجتراح المنكرات. (لسان العرب، ج٣: مادة حوت؛ وج ١٤: مادة نهى) وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (طه: ٥٤) وقالوا: تناسموا، إذا تحدّثوا، وهو من النسيم، فكأنّ كلّاً منهم كان لصاحبه كالنسيم في حديثه. وقالوا: جرّده، إذا عرّاه، وهو - كما قال البستاني - مشتق من الجراد الذي إذا حلّ في أرض عرّاه من أعشابها، ونزع الأوراق على أشجارها. وأجمع الأقدمون على أن الجراد هو مشتق من الجرد. وقالوا: تشاجر القوم إذا تنازعوا وتخاصموا، وهو مشتق من الشجرة، فكأنهم اختلفوا كاختلاف أغصان الشجرة أو اشتبكوا في القتال كاشتباك الشجرة، وقالوا: تلاحم القوم إذا تقاتلوا، وهو مشتق من لحم الثوب، فكأنهم في القتال قد التحموا واختلطوا كما تلتحم اللحم. (البستاني، ١٩٩٢م: ١٣-١٢) وفي الفرق بين السخاء والجود، أنّ السخاء هو أن يلين الإنسان عند السؤال ويسهل عطاؤه للطالب، من قولهم سخوت النار أسخوها، وسخوت الأديم لينته، وأرض سخاوية لينة التراب مع بُعد الأطراف، والسخو: الموضع الذي يوسع تحت القدر ليتمكّن الوقود، فالسخى يتسع صدره للعطية كاتساع موضع النار

واتساع الأرض، ولهذا لا يقال: الله سخي، والوجود كثرة العطاء من غير سؤال، من قولك: جادت السماء، إذا جادت بمطر غزير، والفرس الجواد الكثير الإعطاء للجري، والله جواد، لكثرة عطائه فيما تقتضيها الحكمة. (أبوهلال العسكري، ١٩٩٤م: ١٤٢؛ وزرور، لاتا: ١٥٧) ومن الألفاظ الدالة على الوقار: اللب وهو العقل، ولبب في العربية يدل على خلاص الشيء وتنقيته من الشوائب، فلب كل شيء خالصه وخياره، مأخوذ من لب الثمر وهو ما يؤكل داخله ويرمى خارجه، نحو الجوز واللوز، والجمع اللبوب، ولب النخلة: قلبها، ومنه سمى العقل لباً على التشبيه باللب من الثمر، وجاء في قول عبيد بن الأبرص:

ولا تَتَّبِعَنَّ الرَّأْيَ مِنْهُ تَقْصُهُ      ولكن برأى المرء ذى اللب فاقْتَدِ

(زرور، لاتا: ٢٣٥، ٢٣٤)

وفي العفة قالوا: التزيه، وهو في الأصل الابتعاد والتباعد. يقال نَزِهَتْ الأرض وأَرْضٌ نَزْهَةٌ ونَزِهَةٌ، أي عذبة نائية من الأنداء والمياه والغمق، وسميت الفلاة نزهة، لبعدها عن عمق المياه وذباب القرى وفساد الهواء، وقيل للرجل الذي يترفع عما يذم به نزيه، ويقال: فلان نزه الخلق ونزهه ونازه النفس: عفيف متكرم يتنزه عن المطامع، قال بشر بن حازم:

إذا لم يَأْتِكِ المعروف طَوْعاً      فدَعَهُ فَالتَّنَزَّهُ عَنْهُ مَالٌ

(المصدر نفسه: ٢١٣)

واللغة قياسية في الأصل. قال البستاني: إذا تصفحت متن اللغة وقلبت النظر في أحكامها وأصولها وضوابطها ومعانيها من التناسب والتلاحم، حكمت ولا ريب أنها قياسية في الأصل، وما تطرقت إليها من الشذوذ إنما هو طارئ عليها والشذوذ فيها غير أصيل، وأكثر ما تقع فيها من الشوارد والشذوذ في اللغات في الشعر، لتقييد الشاعر بالوزن، ولا تقع في النثر إلا لخطأ من الناثر أو سهو منه. وذكر ما جاء في الخصائص لابن جني تعريفاً لما قاله، فقال: قال ابن جني: «وقد تقدم في أول الكتاب القول على اللغة أتواضع هي أم إلهام، وحكيها وجوزنا فيها الأمرين جميعاً، وكيف تصرف الحال وعلى أي الأمرين كان ابتداءها، فإنها لا بد أن يكون وقع في أول الأمر بعضها ثم احتيج فيما

بعد إلى الزيادة عليه، لحضور الداعي إليه، فزيد فيها شيئاً فشيئاً إلا أنه على قياس ما كان منها في حروفه وتأليفه وإعرابه المبين عن معانيه لا يخالف الثاني الأول ولا الثالث الثاني كذلك متصلاً متتابعاً، وليس أحد من فصحاء العرب إلا أن يقول إنه يحكى كلام أبيه وسلفه يتوارثونه آخر عن أول وتابع عن متبع، وليس كذلك أهل الحضرة، لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إليه اللغة العربية الفصيحة، غير أن كلام أهل الحضرة مضاهٍ لكلام فصحاء العرب في حروفهم وتأليفهم إلا أنهم أخلوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح، وهذا رأى أبى الحسن، وهو الصواب. (البستاني، ١٩٩٢م: ٢٢-٢١)

هل اللغات أحادية أم ثنائية في أصلها وهل أنها وضعت أو جاءت كلها في وقت واحد أم لا؟

أما من حيث كون اللغات أحادية أم ثنائية، فقال البستاني: مما أطبق علماء الألسن على تقريره في هذا العصر أن اللغات ولا سيما العربية هي في الأصل ثنائية الوضع، أى مركبة ألفاظها من حرفين ثانيهما ساكن، مثل: خر، وهب، وقد، وصك... إلخ، ثم قضت الحال أن يضيفوا إلى الأصل حرفاً أو أكثر، فحصل عن ذلك أبنية لا تحصى مما استوفوا الكلام عليه في مباحثهم اللغوية، وقد اجتمعت كلمتهم أيضاً على أن الألفاظ هي في الأصل حكاية صوت، كخبر الماء ودوى الريح وزمزمة الرعد وحفيف الورق ونعيب الغراب وصهيل الفرس وما أشبه ذلك. (المصدر نفسه: ١١)

لقد ذكرنا فيما سبق نظريتي التواطؤ والتوقيف، ولربما يسأل: هل وضعت اللغة في وقت واحد في حالتى القول بالتواطؤ أو التوقيف؟ فالجواب: أن اللغات لم توضع في وقت واحد، بل وضعت متلاحقة متتابعة، لأن الواضعين لها كانوا كلماً اضطروا إلى التعبير عن معنى، وضعوا له لفظاً يدل عليه ويميزه عما سواه. وأول ما تواضعوا عليه من الكلمات ما كانوا في أمس الحاجة إلى تداوله للإعراب عن حاجاتهم المعاشية مما لا تعدى في الغالب المأكل والمشرب، ثم تطرقوا إلى وضع الألفاظ للمحسوسات، وبقيت اللغة عدة قرون يكاد لا يوضع فيها كلمة للمعقولات والخيالات والوهميات والكماليات، لأن

معارف أولئك القوم كانت غاية في البساطة، فلم تكن جاهليتهم الجهلاء لتدفعهم إلى ميدان الحضارة الفسيح، فيخرجوا من الخشونة إلى النعومة ومن الشظف إلى الترف، بل كان كلٌّ همَّهم أن يستثمروا الأرض ويستخدموا العجاوات في سبيل أغراضهم، وكذلك على القول بأن اللغات توقيف، فإنها ما جاءت في وقت واحد بناءً على ما ذهب إليه وذكره السيوطي حيث قال: ولعلَّ ظاناً يظنُّ أنَّ اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملةً واحدةً، وفي زمان واحد، وليس الأمر كذلك، بل وقَّف الله عزَّ وجلَّ آدمَ - عليه السلام - على ما شاء أن يعلمه إياه ممَّا احتاج إلى علمه في زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله، ثمَّ علَّم بعد آدم من الأنبياء - صلوات الله عليهم - نبيا نبيا ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمَّد(ص)، فآتاه الله من ذلك ما لم يؤتِه أحدًا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة، ثمَّ قرر الأمر قراره. (البستاني، ١٩٨٧م: ١١؛ والسيوطي، لاتا: ٩)

### اللغة العربية لغة غنية وامتسعة

إنَّ الفروق الموجودة في اللغة العربية أدلُّ شئٍ على اتساعها وغنائها، غير أن ذلك وإن دلَّ على دقَّة تصور البدوي وفسحة خاطره فإنه يحمل رواد هذه اللغة على أن ينقلوا عن موردها نافرين ولاسيما في هذا العصر الذي ازدحمت فيه الحاجات وضاعت وجوه الارتزاق وأصبح الناس أميل إلى تعلُّم إحدى اللغات الحية في أسرع ما يمكن من الوقت حتى يتسع لهم المجال لاقتباس العلوم والفنون الجميلة التي لامندوحة لهم عنها فيقووا على مجاراة غيرهم من الأمم في ميدان تنازع البقاء. ونورد هنا شيئا من هذه الفروق ليكون دليلا وبينه على المصاعب التي تعترض الطلاب وتحول بينهم وبين التخلُّع من هذا اللسان. يقولون: الصبَّاحَةُ في الوجه، والوَضاءَةُ في البَشْرَةِ، والجَمالُ في الأنفِ، والمَلَّاحَةُ في الفم، والحَلالَةُ في العينين، والظَّرْفُ في اللسان، والرِّشاقَةُ في القَدِّ، واللِّبَّاقَةُ في الشِّمائلِ، وكَمالُ الحُسْنِ في الشَّعرِ. ويقولون: الشَّعرُ للإنسان وغيره، والصَّوفُ للغنم، والمِرْعَزَى والمِرْعَزَاءُ للمعز، والوَبْرُ للإبل والسَّبَّاع، والعِفْءُ للحمار، والرِّيشُ للطائر،



والزغب للفرخ، والزَّفُّ للنَّعام، والهَلْبُّ للخنزير. (الثعالبي، لاتا: ٩٢ و٤٨) ويسمون الطعام الذي يصنع عند العرب للعرس: الوَلِيمَةُ، وعند المأتم: الوَضِيمَةُ، وعند الولادة: الخُرْسُ، وعند الختان: العذيرة، وعند القدوم من سفر: النقيعة، والمأذبة طعام الدعوة، والوكيرة طعام البناء، وطعام المستعجل قبل إدراك الغداء العجالة. (المصدر نفسه: ٢٦٦) ويقال: فلان جائعٌ إلى الخبز، قَرِمَ إلى اللحم، عطشانٌ إلى الماء، عيمانٌ إلى اللبن، بَرِدَ إلى التمر، جَعِمَ إلى الفاكهة. وأوَّلُ مراتبِ الحاجةِ إلى شربِ الماءِ: العَطَشُ، ثمَّ الظَّمَا، ثمَّ الصَّدَى، ثمَّ الغَلَّةُ ثمَّ اللُّهْبَةُ، ثمَّ الهَيَامُ ثمَّ الأوامُ، ثمَّ الجِوَادُ وهو القاتلُ. (المصدر نفسه: ١٦٦ و١٦٧) ويقولون: يده من اللحم غَمِرَةٌ، ومن الشحم زَهْمَةٌ، ومن السمك ضَمِرَةٌ، ومن الزيت قَنَمَةٌ أو وَضِيئَةٌ، ومن البيض زَهِكَةٌ، ومن الدهن زَنِيخَةٌ، ومن الخلَّ حَمِطَةٌ، ومن العسل لَزِجَةٌ، ومن الفاكهة لَزِقَةٌ، ومن الدَّمِ ضَرِجَةٌ، ومن الطين رَدِغَةٌ، ومن الحديد سَهِكَةٌ، ومن العذرة طَفِيسَةٌ، ومن البول وَشَلَةٌ، ومن الوسخ رَوْتَةٌ، ومن اللبن وَضِرَةٌ، ومن العجين لَوْتَةٌ، ومن الجبن نَسِمَةٌ، ومن النَّقْسِ طَرِيسَةٌ، ومن الدَّقِيقِ ثَبْرَةٌ، ومن السويق والبزر رَضِيفَةٌ، ومن الفرساد قَنْتَةٌ، ومن البَطِيخِ نَضِجَةٌ، ومن الذهب والفضة قَنْمَةٌ، ومن الكافور سَطِيعَةٌ، ومن التراب تَرِيَةٌ، ومن الرماد رَمْدَةٌ، ومن الخبز حَنِيذَةٌ، ومن المسك ذَفِيرَةٌ، ومن غيره من الطيب عَطِرَةٌ أو عَبَقَةٌ، ومن الرِّوَاتِحِ الطيبية أَرِجَةٌ. (البستاني، ١٩٩٢م: ١٩-١٨) ويسمون من طرف الخنصر إلى طرف الإبهام: النَّشِيرُ، ومن طرف الإبهام إلى طرف السبابة: الفَتْرُ، وبين السبابة والوسطى: الرَّتَبُ، وما بين الوسطى والبِنْصَرِ: العَتَبُ، وما بين الخنصر والبِنْصَرِ: الوصيم، وهو البُصْمُ أيضاً، وما بين كلِّ إصبعين: الفَوْتُ وجمعه أفوات. (السيوطي، لاتا: ٤٤٥) ويقولون في خروج الماء من السحاب: سَحَّ، ومن الينبوع: نَبَعٌ، ومن الحجر: انبَجَسَ، ومن النَّهْرِ: فاضَ، ومن السَّقْفِ: وكَفَ، ومن القَرِيَةِ: سَرَبَ، ومن الإناء: رَشَحَ، ومن العين: انسكَبَ، ومن الجَرِحِ: بثعَ أو ثَعَّ. (الثعالبي، لاتا: ٢٨٥؛ والجزائري، ١٤٠٨ق: ٢٣١) ويقولون في محاسن العين إذا كانت شديدة السواد مع سعة المقلة: الدَّعْجُ، والبرحُ: شِدَّةُ سوادها وبياضها، والتَّجْلُ: سَعْتُهَا، والكحلُّ: سواد جفونها من غير كحل، والحورُ: اتساع سوادها كما هو في أعين الضُّباءِ، والوَطْفُ: طولُ أشفارها وتماؤها، والشُّهْلَةُ: حُمْرَةٌ في سوادها، ويقال للرجل أول

ما يظهر الشيبُ به: قد وخطه الشيبُ، فإذا زاد قيل: قد خصفه وحوّصه، فإذا ابيض بعض رأسه قيل: أخلص رأسه فهو مُخلصٌ، فإذا غلب بياضه سواده، فهو أغثمٌ، فإذا شمطت مواضع من لحيته قيل: قد وخره القتيرُ ولهزه، فإذا كثُر فيه الشيبُ وانتشر قيل: قد تفشغ فيه الشيبُ. (التعالبي، لاتا: ٩٥،٨٣) ويقولون في القطع من أشياء تختلف مقاديرها في الكثرة والقلّة: كِسْرَةٌ من الخبز، فِدْرَةٌ من اللحم، هُنَانَةٌ من الشحم، فِلْدَةٌ من الكبد، تَرَعِيْبَةٌ من السنام، نَسْفَةٌ من الدقيق، فَرَزْدَقَةٌ من الخمر، لَبَكَةٌ من التريد، عَبَكَةٌ من السويق، غُرْفَةٌ من المرق، شُفَافَةٌ من الماء، دَرَّةٌ من اللبن، كَعْبٌ من السمّن، ثَوْرٌ من الأقط، كُنْتَلَةٌ من التمر، صَبْرَةٌ من الحنطة، نُقْرَةٌ من الفضة، بَدْرَةٌ من الذهب، كُبَّةٌ من الغزل، خُصْلَةٌ من الشعر، زُبْرَةٌ من الحديد، حِصَاةٌ من المسك، جَدْوَةٌ من النار، كِسْفَةٌ من السحاب، قَزَعَةٌ من الغيم، خِرْقَةٌ من الثوب، فِرِصَةٌ من القطن، فِلَعَةٌ من الجلد، رُمَةٌ من الحبل، فِلَقَةٌ من السيف، قِصْدَةٌ من الرُوح، حُنُوَةٌ من التراب، ذَرُوٌ من القول، نَبْذٌ من المال، هَزِيْجٌ من الليل، لُمْظَةٌ من الطعام، صُبَابَةٌ من الشراب، مُسَكَّةٌ من المعيشة. وأول مراتب الحبّ: الهوى، ثمّ العلاقة، وهى الحبُّ اللازم للقلب، ثمّ الكلف، وهو شدة الحبّ، ثمّ العشق، وهو اسم لما فضل عن المقدار الذى اسمه الحبّ، ثمّ الشغف وهو إحراق الحبّ القلب مع لذة، وكذلك اللوعة واللاعج، فإنّ تلك حرقة الهوى، وهذا الهوى المحرق، ثمّ الشغف، وهو أن يبلغ الحبُّ شغاف القلب، وهى جلدة دونه، ثمّ الجوى، وهو الهوى الباطن، ثمّ التيمم - ومنه حبيبٌ متيم - وهو أن يستعبده الحبُّ، ثمّ التبل، وهو أن يسقمه الهوى - ومنه متبول - ثمّ التدلّه، وهو ذهاب العقل من الهوى، ثمّ الهيوم، وهو أن يذهب على وجهه، لغلبة الهوى عليه، ومنه رجلٌ هائمٌ. (المصدر نفسه: ٢٣٠-٢٢٩، ١٧١) هذه أجزاء يسيرة من الأمثلة، وإذا أردت أن تقف على أكثر من ذلك فراجع «الغريب المصنف» لأبى عبيدة، و«الجمهرة» لابن دريد، و«فقه اللغة» للتعالبي، و«الفروق اللغوية» لأبى هلال العسكري، و«المزهر» للسيوطى، وغيرها من كتب الفروق. ومن هنا نعرف ما كان عليه واضعو هذه اللغة من خصب البصيرة وقوة البديهة وسعة التصرف وغزارة المادة واتساع مجال البيان، ولو عاشوا فى عصرنا هذا - كما قال البستاني - ورأوا مانراه من ينابيع المُخترعات المُتفجّرة

من صدر العلم الفياض، فلانظنّ أنهم كانوا يقفون أمامها - كما يشاهد اليوم في جوانب مختلفة - وقفة الحيران وينظرون إليها كما ينظر الأبكم إلى ما حوله من المشاهد الرائعة ولا ينبس ببنت شفة، أو يعجزون عن أن يجدوا ألفاظا للملابس العصرية التي تلبس اليوم على الأجسام، والأطعمة التي تذوقها الأفواه، وإذا كانت اللغة ضاقت عن المعاني المستحدثة فأمانا طرق الاشتقاق ووجوه المجاز فإنها كفيّلة بسدّ هذه الحاجة، ولا بأس بالنقل من اللغات الأعجمية إذا لم يحصل على الألفاظ للمعاني الحديثة التي لم تكن على عهد الأجداد القدماء، فإن اللغات مهما غزرت مادّتها لا يستغنى بعضها عن بعض، وليس في ذلك أدنى عار. (البستاني، ١٩٩٢م: ٢٠-١٩)

### عصمة الأعراب الجاهليين عن الخطأ

هل كان العرب الجاهليون في عصمة من الخطأ؟ هذا السؤال كثيرا ما شغل بال كثير من المحققين في عصور متمادية، فذهب الأقدمون إلى أن العرب قبل ظهور الإسلام كانوا في عصمة من الخطأ بحيث لو قصد أن ينطق بخلاف ما طبعت عليه سليقته العربية لما طاوعت لسانه، وهو قول لا يزال يقول به جمهرة اللغويين حتى في هذا العصر الذي هو عصر التمهيص للحقائق ونبد كل ما لا يقع على سداد وصواب من الآراء. ولاشك أن هذه العقيدة التي كادت تكون من الآيات المنزلة عند القدماء، قد ألفت على طلاب اللسان العربي عبئا فادحا، وعرضتهم لمصاعب يشعرون بتوعرها كلما فتحو بابا للمناظرة في مسألة نحوية أو لغوية، وجعلت طلاب هذا اللسان يتجشمون المشاق في تعلّم قواعدها ولاسيما إذا كانوا أجانبا عنها. (البستاني، ١٩٩٢: ٢٤) ولا بد من الإشارة إلى أن اعتبار الجاهليين بأن كلامهم في عصمة، مخالف للواقع عقلا وعادة، فمن ملازمات العقل البشري أنه لا يهتدى إلى الصواب المطلق، فالإنسان محل للخطأ ما لم يكن مرتبطبا بمنبع القدرة الأزلية، لكنه قد يدرك شيئا وتغيب عنه أشياء، فهناك هفوات وأغلاط صريحة عند الجاهليين لا يمكن التغاضي عنها، فإذا اعتبار كلامهم في عصمة، مخالف للواقع. قال ابن الفارس: «ما جعل الله الشعراء معصومين يوقون الغلط والخطأ، فما صح

من شعرهم فمقبول، وما أبته العربية فمردود.» ومن الأغلاط التي جرت على لسانهم، همزهم «المصائب» وهو غلط منهم، وذلك لأنهم شبهوا مصيبة بصحيفة، فلما همزوا صحائف همزوا أيضا مصائب، وليست تاء مصيبة بزائدة كياء صحيفة، لأنها عين عن واوهى العين الأصلية، وأصلها مصوبة، لأنها اسم فاعل من أصاب، وكأنه سهل لهم ذلك أنها بدل من الأصل وليس أصلا، والبدل من الأصل يشبه الزائد، ومن ذلك قولهم: رثأت زوجي بأبيات أي رثيت، وقول الشاعر:

ألم يأتيك والأبناء تنمي (المصدر نفسه: ٢٤، ٢٦)

### الخلافا بين نحوى البصرة والكوفة وتأثيره على اللغة

لقد ضاع الشئ الكثير من ألفاظ اللغة العربية، وفقد جانب كثير من قلائد شعرائها، وفرائد خطبائها، وتفكك حلقات القياس، وتفشَّى الشذوذ فى أصولها وأوضاعها، واستتباب الفوضى فى مصادرها الثلاثية وجموعها المكسرة وانتشار الوهن فى لغاتها بعد أن ذهبت قبائلها فى تلك البوادر المتنامية الأطراف كل مذهب، وبعد أن تعاقب عليها فى صدر الإسلام من المصائب والمهالك بموت عدد عديد من رواتها واشتغال الخلفاء الراشدين، فالأمويين بفتح البلدان، واجتياح الممالك توسيعا لدولتهم الفتية مما قضى على العرب المجاهدين بمخالطة الأعاجم من فرس، وروم، وترك، وكرد، وقبط، ونبط، وسريان، وأحباش، وغيرهم، وفسح المجال لسريان الفساد فى جسم اللغة، وانتشار اللحن على ألسنة الناطقين بها. (البستاني، ١٩٩٢م: ٢٧) ولم تكتف هذه الفجائع الساحقات حتى أنزل الدهر بهذه اللغة ما كادت تنوء به ظهرا وتضيق به صدرا، ألا وهو العراك الشديد الذى حميت ناره بين البصريين والكوفيين فى قرون متلاحقة مما لا تزال حتى اليوم تقاسى برحاءه وتتجرع مرآثره، ومع أنه لا يمكن أن نقول إنه ماكان لهذا العراك أية فائدة، فإنه لم يكن خالية من الفائدة بصورة كلية، لكن قدشغل أئمة اللغة الأعلام أحقابا متتابعة لا هم لهم إلا المناظرة العقيمة والمحاكاة التافهة والانتقادات الجارحة، فلم يأنفوا من تزييف روايات صحيحة وتصحيح روايات زائفة، بل كثيرا ما كانوا ينتحلون فى هذا

السبيل أشعارا ينسبونها إلى أحد الشعراء الجاهليين تأييدا لمذهبهم، حتى أفسدوا اللغة بما أحدثوه من الشذوذ فيها مما يبرأ منه الواضع، وكان لكل فريق منهم رواته يختلفون للجاهليين والمخضرمين من الشعر ما لم يكن لهؤلاء به عهد، ولولا القرآن الكريم ومن يستن بسنته من المسلمين المنتشرين في بلاد الله، لم تكن هذه اللغة قادرة على البقاء بين اللغات الحية، وكثرت الشواذ واضطربت الأصول وقلّت الضوابط وضاع القياس، فقد أضع العلماء أوقاتهم الثمينة فيما ليس من ورائه أدنى جداء لنفوسهم وأمتهم ولغتهم بدلا من أن يصرفوها كصرف غيرهم من أبناء سائر اللغات الرّاقية، في تعزيز العلوم العالية والفنون الجميلة والمعارف المفيدة، وقد كانوا متشاغلين عن حماية وطنهم بسبب تلك المناقشات والمنافرات التي لا طائل تحتها. (البستاني، ١٩٩٢م: ٢٨-٢٧) ولربما لم تكن المشاجرات الدائرة بين الفريقين خالية عن تأثير السياسة والطابع القومي، وإن ما جرى في مسألة الزنبرية بين سيبويه والكسائي ونقله النحويون في كتبهم تشير إلى ذلك التأثير. وكان الأنسب بهم والأليق لمصلحتهم ومصلحة أمتهم أن يتابعوا الخطة التي جرى عليها المأمون في نقل المصنفات العلمية القيمة عن اللغات الأجنبية؛ فإن هناك علاقة بين اللغة والتفكير؛ ففي داخل كل لغة بشرية معينة تتبلور وترشح أشكال معينة من التعبيرات والصياغات اللغوية، وهذه الأشكال والصياغات اللغوية إما أن تتكرر وترشح عن طريق التعليم المدرسي أو الاستخدام اليومي من قبل أبناء اللغة الواحدة حتى تؤدي في النهاية إلى خلق إطار لممارسة الفكر مرتبط ارتباطا وثيقا بصيغ التعبير هذه، فلا يخرج عنها، وإذا لم يدخل أي شيء من الخارج لزعزعة هذه الصيغ التعبيرية ونفخ الروح فيها فإنها تبقى على حالها كما هي لفترة زمنية طويلة، وذلك لأن هذه الأشكال التعبيرية قد بلورت من قبل الجماعة القومية اللغوية استنادا إلى تجربة تاريخية تعيشها الأمة لذاتها وبذاتها، فتتعلق اللغة على ذاتها بانغلاق الأمة على ذاتها، وتنشأ العلاقة اليابسة القسرية بين اللغة والفكر، فإذا ضاق الفكر ضاقت اللغة، والعكس بالعكس. ومن المؤكد أنّ ما حصل للغة العربية منذ القرن الحادي عشر والثاني عشر وحتى القرن التاسع عشر، أي طيلة ثمانية قرون، كان نوعا من التخشب والجمود في اللغة والفكر على حد سواء،

فبعد أن حذف التعبير الفلسفي والعلمي من الدائرة اللغوية العربية وضمرت أساليب التعبير وصياغاته التجديدية في اللغة العربية، نتج عن ذلك صعوبة التفكير في كثير من المفاهيم والأفكار والنظريات الحديثة في ما يختص بعلم اللغات العربية الأساسية، فنامت اللغة طويلا عن التفكير، وعندما استيقظ في القرن التاسع عشر وجدت أنّ الفكر قطع مسافات طويلة في اللغة الأجنبية الحديثة كالفرنسية والإنجليزية والألمانية على وجه الخصوص، ونتج عن ذلك أيضا أنا لانجد مقابلا عربيا لمصطلحات أساسية كثيرة لا بد منها من أجل التفكير بالمشاكل والظواهر المطروحة على مجتمعنا اليوم. (أركون، ١٩٩٠م: ٣٤٣-٣٤٢) ولو انتبهوا إلى هذا الأمر لم يكن اليوم الحاجة إلى البحث عن أوضاع جديدة لمخترعات حديثة، ولما كانت اللغة العربية عند هذا الحد من العقم والجمود تجاه تلك المكتشفات الطريفة في هذا العصر الذي هو عصر التوليد والإبداع، بل ربما كانت الدول التي نراها اليوم متقدمة في الصناعة والتكنولوجيا، تحتاج أن تستفيد من أوضاعها واصطلاحاتها العلمية.

### النتيجة

إن بقاء الأمة بقاء لغتها وعزتها تعود إلى عزة أمتها، فاللغة سجل أحوال الأمة في الميادين المختلفة في حياتها، ونظرا لأهمية اللغة فإن الأمم الراقية تحاول بكل الوسائل المتاحة لديها لتوسيع لغاتها ونشرها بين الأمم، وإنها وسيلة التفاهم والتعاون والتعايش بين المجتمعات الإنسانية.

تختلف النظريات حول النشأة الأولى للغة البشر وحول كونها اصطلاحا أم توقيفا، ولم تصل أصحاب تلك النظريات إلى النتيجة الحتمية حول هذا الموضوع، لذا فإن الباب مفتوح للاجتهادات والتأويلات.

إنّ اللغة العربية من بين طبقات اللغات تمتاز بكونها لغة اشتقاقية يتحول فيها الأصل الواحد إلى صيغ مختلفة، وفيها تناسب عجيب بين اللفظ والمعنى، وإن الفروق أدل شيء على اتساع هذه اللغة.

ضاح كثير من ألفاظ اللغة العربية ودخل فيها الشذوذ بموت عدد من روايتها في صدر الإسلام واشتغال الخلفاء الراشدين فالأمويين بفتح البلدان وتوسيع الدولة الإسلامية مما أدى إلى مخالطة غير العرب بالعرب المجاهدين ففسح المجال لانتشار اللحن فيها، كما أنّ المنازعات الشديدة بين البصريين والكوفيين والتي شغلت أئمة اللغة أحقاباً، وإن لم تكن خالية من الفائدة لكن لها الأثر السلبي كذلك، لأنّ كلا الطرفين كان حريصاً على تعزيز آرائه، ولم يمتنع من تزييف روايات صحيحة وتصحيح روايات زائفة في سبيل ذلك.

## المصادر والمراجع

### القرآن الكريم

- ابن منظور. ١٩٦٨م. *لسان العرب*. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر.
- ابن النديم. ١٩٧٨م. *الفهرست*. بيروت: دار المعرفة.
- ابن سلام الجمحي، محمد. ١٩١٣م. *طبقات الشعراء*. ليدن: مطبعة بريل.
- أنيس، إبراهيم، ١٩٦٨م. *دلالة الألفاظ*. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- البستاني، عبد الله. ١٩٩٢م. *البيستان*. الطبعة الأولى: مكتبة لبنان.
- البستاني، بطرس. ١٩٨٧م. *محيط المحيط*. بيروت: مطبعة تيوبوبرس.
- الثعالبي، أبو منصور. لا تا. *فقه اللغة وسر العربية*. قم: مؤسسة إسماعيليان.
- الجزائري، نور الدين. ١٤٠٨ق. *فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات*. حققه وشرحه محمد رضوان الداية. الطبعة الثانية. مكتب نشر الثقافة الإسلامية.
- أركون، محمد. ١٩٩٠م. *ندوه ومواقف، الإسلام والحداثة*. الطبعة الأولى. دار الساقى.
- زرزور، نوال كريم. لا تا. *معجم ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن*. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.
- السيوطي، جلال الدين. لا تا. *المزهر*. شرحه وضبطه وعنون موضوعاته وعلّق حواشيه محمد أحمد جاد المولى، وعلى محمد الجاوى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم. لبنان: دار الفكر للطباعة.

الشرتوني، سعيد الخورى. ١٩٩٢م. *أقرب الموارد*. الطبعة الثانية. بيروت: لانا.

الطبرى، محمد بن جرير. ١٩٥٤م. *جامع البيان عن تأويل القرآن*. الطبعة الثانية. مصر: لانا.